

الفصل الحادى والعشرون

بعد القادسية

خرجت الشمس من خدرها ، وفى نفس الوقت خرج رجل من داره فى يثرب ، وراح يضرب فى طرقاتها حتى بلغ خارج المدينة ، فأخذ يمد بصره إلى الأفق البعيد يستكشف الطريق لعله يلمح أحداً قادماً . وكان كلما لمح أحداً أسرع إليه ، وأخذ يسأله من أين أتى ، وكان غالباً ما يترك القادم عقب سماع رده ، فما كانت الجهة القادم منها لتعنيه ، إنه يسأل عن أخبار جهة بعينها تهمه أخبارها حتى لأنه كان يخرج يومياً من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، يسأل الركبان عن أهل تلك الجهة . واستمر الرجل يتطلع إلى الأفق البعيد ، ولمح شيئاً على مدى البصر يتحرك ، فراح يرقبه ، وأخذ الشبح يقترب ويبدأ ويبدأ ، إنه رجل على ناقته يخذ فى السير صوب يثرب ، فأسرع صاحبتنا إليه ، فلما بلغه سأله : — من أين ؟ .

— من القادسية .

فقال صاحبتنا بلهفة :

— يا عبيد الله حدثنى .

— هزم الله العدو ، وانتصر المسلمون ، وقتل رستم والجالينوس وقواد كشيرون ، كانت معركة ماشهد العرب مثلها ، وغنمنا غنائم لا حصر لها .

واستمر القادم يصف ما دار فى القادسية وهو على ناقته ، والرجل

يخبط معه ويستخبره ، وبرقت أسارير الرجل لما يسمع ، وانطلقا يتحادثان حتى دخلا المدينة ، فراح الرجل السائر على قدميه يسلم على الناس ، فيرد الناس عليه السلام ، وعليك السلام يا أمير المؤمنين ، فلما رنت « يا أمير المؤمنين » في أذن الراكب ، نزل عن ناقته ، وتقدم من عمر وقال :

— فهلا أخبرني رحمتك الله أنك أمير المؤمنين

— لا عليك يا أخى .

ومد الرجل يده . وأخرج كتاب سعد ، ودفع به إلى عمر وهو

يقول :

— أنا سعد بن عبيدة الفزارى ، قد بعثني سعد إليك بكتاب .

فتناول عمر الكتاب ، وراح يقرأ : « أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل ، وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤون مثل زهاتها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلهم عوه ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأثر ، وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج ، وأصيب من المسلمين فلان وفلان وفلان ، ورجال من المسلمين لا نعلمهم ، الله بهم عالم ، كانوا يدعون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى التحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بنى إلا بفضل الشهادة ، إذ لم يكتب لهم . »
وانطلق عمر إلى المسجد ، وقام في الناس فقرأ عليهم الفتح فسرت في المدينة موجة غبطة وسرور .

قسم سعد النىء في الداس ، فكان نصيب الفارس ستة آلاف ، والرجال ألفين : وجاءه من عمر أن يفضل أهل البلاء ، فأعطى كل منهم

خمسمائة ، ثم جاءه من عمر : « أن رد على المسلمين الخمس ، وأعط من لحق بك من لم يشهد القادسية ، فراح سعد يوزع على الناس ، وبقى عنده ثمن كثير لم يدر ما يصنع به ، فأرسل إلى عمر يستفسره ، فقال له عمر أن يوزع على حملة القرآن ؛ وفيما كان سعد ينفذ أمر أمير المؤمنين ، دخل عليه عمرو بن معديكرب ، وبشر بن ربيعة ، فالتفت سعد إلى عمرو وقال له : — ما معك من كتاب الله تعالى ؟ .

— إني أسلمت باليمن ، ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن .
فأبى سعد أن يجعل له من مال الحفاظ نصيباً ، والتفت إلى بشر وسأله عما معه من كتاب الله ، فاعتدل بشر وقال :
— بسم الله الرحمن الرحيم .

وصمت ففقد كان هذا كل ما يحفظ من القرآن ، فضحك القوم ، ورفض سعد أن يجعل له من هذا المال نصيباً ، فلم يرض عمرو عن هذا القرار ، فكيف يحرم وقد أبلى في المعركة بلاء شديداً ، فالتفت إلى سعد وقال :

إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقادير
نعطى السوية من طعن على نعد ولا سوية إذ نعطي الدنانير
وقال بشر :

أنخت بباب القادسية ناقتي وسعد بن وقاص على أمير
وسعد أمير خيره دون شره وخير أمير بالعراق جرير
تذكر هداك الله وقع مسيوفا بباب قديس والمناكر عسير
عشية ود القوم لو أن بعضهم يعار جناحي طائر فيطير
فأطرق سعد لما سمع هذا ، إن ما يقولان حق ، فرأى أن يكتب إلى عمر كتاباً بأمرهما وما دار بينهما وبينهما ، فكتب الكتاب وأرسله إلى عمر ، فكتب عمر إليه : أن أعطهما على بلائهما ، فاستدعاهما سعد ، وأعطى كل واحد منهما ألفي درهم ، فشاع الرضا في نفسيهما .

الفصل الثاني والعشرون

يبابيل

((أو لم تكونوا أنتم من قبل ما لكم من زوال))
قرآن كريم

تصرم شهران بعد القادسية ، وأبل سعد من مرضه ، وانتظر إذن أمير المؤمنين بالمسير ، إنه ليتوقى إلى فتح المدائن عاصمة كسرى ، وإنه ليشتاقي إلى دخول إيوانه ، ليت إذن أمير المؤمنين عمر يبلغه قريباً ، إذن لانطلق بالناس وهم في غمرة حماسهم ، وأوج مجدهم ، وعن نصرهم ، ولا كتسح أمامه كل شيء ، ولطوى ملك كسرى طياً ، ولا ارتفعت أصوات المؤذنين في تلك المملكة المترامية معلنة زوال الوثنية ، مؤكدة عبادة الله وحده لا شريك له .

وجاء كتاب عمر أن انطلقوا إلى المدائن ، وأمره أن يخلف النساء والعيال بالعتيق ، ويجعل لهم كنفاً من الجند ، وأن يشركهم في كل مغنم ماداموا يخلفون المسلمين في عيالهم ، فترك سعد النساء وعين لهن الحرس ، وأمر زهرة بن الحوية بالانطلاق إلى الحيرة ، فخرج زهرة ومن معه ، وانطلقوا صوب المدائن ، فلما انتهوا إلى برس ، وجدوا جيشاً من جيوش الفرس ، فدارت معركة بين الجيشين لم تدم طويلاً ، فقد كان المسلمون مسلحين بكل أنواع السلاح والكراع التي غنموها في القادسية ، فلم يلبث جيش فارس أن فر ليلحق بمن بقي ببابل من جيوشهم .

نزل زهرة في برس ، وأجهدهم دهقانها ، وأخبره أن الفرس يتجمعون

في بابل ، فغدت اجتمعت فلال انقادسية وبعض جنود يزدجريد ، وعمدوا العزم على مطاولة المسلمين ، وخشى زهرة من أن يتمكنوا من لمشعهم ، فسكتب إلى سعد بالخبر ، وأنبأه أنهم تجمعوا حول الفيرزان ، فلما بلغ سعد الكتاب ، ولى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص عمل خالد بن عرفة ، وجعل خالد على الساقة ، وأسره بالافضاق إلى برس الانضمام إلى زهرة ، فخرج الجيش مجهزة بالعتاد والسلاح ، ذلك السلاح الذي غنموه من الفرس في النقادسية ، وانطلقوا ليقاؤهم بسلاحهم ، وعقب خروج هاشم ، خرج سعد ومن معه ، واجتمعوا جميعاً في برس ، وقدم سعد زهرة وأتبعه هاشم ، وما أن التقى الجمعان في معركة ، حتى انهزم الفرس ولادوا بالفرار ، وانطلقوا على وجوههم وفر الهرمزان ، إلى الأهواز ، وساب كل ما كان يقع في يده ، وخرج معه الفيرزان وانطلقا إلى نهاوند ، وكان بها كنوز كسرى فسلبها وعبرا بهرسير إلى جانب دجلة الآخر ، وقطعا الجسر .

بلغت أنباء انتصارات المسلمين كل مكان ، فخر ذلك في نفوس الفرس ، فاجتمعت كتيبة من كتائبهم تدعى بوران ، وراحوا يقسمون : والله لا يزول ملك فارس ما عشنا ، وراحوا يرددون قسمهم كل يوم ، وثبتوا في مظلم ساباط ، وكان معهم أسد من الأسود التي ألقيها كسرى ، فحقدوا العزم على أن يدعوا ذلك الأسد يقابل الأعداء ، وحسبوا أنه سيرعبهم ، وينهاهم عن عزهم ، وما دروا أن بين المسلمين أسوداً لا تهاب الردى ، بل رجلاً أشجع من الأسود الكواسر .

وترامت أنباء تلك الكتيبة إلى سعد ، فقدم زهرة ، ثم أتبعه هاشم ، فانطلق هاشم حتى بلغ مظلم ساباط فانتظر هناك حتى لحق سعد به ، فانطلق الجميع إلى المعركة التي كانت دائرة بين جيش زهرة وكتيبة بوران ، بلغ جيش هاشم وجيش سعد الميدان والمعركة دائرة على أشدها ، ولمح هاشم

كان أسدًا يشيع الفوضى في صفوف المسلمين ، ويبادر الناس فيقتروا مذعورين ، فاندفع نحوه ولكن حصانه جعل ، فنزل عنه ، واستل سيفه وتقدم نحو الأسد ، ثم ضربه ضربة مائلة فقتله ، فكبر الناس ، فارتج المكان ، ودب الذعر في نفوس الفرس ، وخلعت قلوبهم ، فولوا الأدبار مدحورين ، فاتجه سعد إلى هاشم ابن أخيه وقبل رأسه ، لقد وفق المسلمين شر أسد فارس ، ولجأهم من هلاك شديد . ونزل سعد إلى مظل سابط ، وراح يتتبع بنظره هؤلاء القوم الفارين الذين أقسموا بالله ألا يزول ملك فارس ما عاشوا ، فغمغم ، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال .

ذهب من الليل هدأة ، ونادى منادى سعد : « إلى بهر سير ، فامتطى الناس خيولهم ، وخرجوا إلى بهر سير ضاحية المدائن عاصمة الفرس ، وكان كلما قدمت خيل عليها . كبر الناس ، واستمر تكبير المسلمين حتى نجز آخر من كان مع سعد .

نزل المسلمون على بهر سير ، وكان عليها خنادقها وحرسها ، وعدة الحرب ، وراح أهل فارس يرمون المسلمين بالمجانيق ، فاستصنع سعد أحد الفرس المجانيق ، ونصب على أهل الضاحية عشرين منجنيقاً ، وراح المسلمون يضربون الناحية ، وكان بعض الفرس يخرجون للقتال بين الحين والحين . وأخيراً خرجوا في رجالة وناشبة وتجردوا للحرب ، وتبايعوا على الصبر ، فقاتلهم المسلمون فلم يثبتوا لهم وولوا مدبرين ، ودخلوا حصون المدينة ، وضرب المسلمون عليهم الحصار ، وطال الحصار ، ونال الجهد من المحاصرين . وفي يوم أشرف رسول ، فتقدم سلمان الفارسي ليكلّمه ، فقال الرسول :

— إن الملك يقول لكم : هل لكم في المصالحة على أن لنا ما يلينا

من دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم ، أما شعبكم
لا أشبع الله بطونكم .
فقال سليمان :

— إني منكم في الأصل ، وأنا أرق لكم ، ولكم في ثلاث أدعوكم
إليها : ما يصالحكم أن تسلموا ، فإخرافتنا لكم ما لنا وعليكم ما علينا ،
وإلا فالجزية ، وإلا نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .
وانتظر المسلمون ثلاثة أيام ، وأبى الفرس أن يجيبوا إلى شيء
فامتأنف سعد قتالهم ، فلم يجدوا أمامهم إلا الفرار إلى المدائن
وترك المدينة .

وأقبل الليل ، وتسور رجل أسوار المدينة ، ثم هبط فيها ، وراح
يجوس خلاطها فلم يجد أحداً ، فناداهم :
— والله ما فيها أحد .

فتدافع المسلمون ودخلوا المدينة فإذا هي ساكنة سكوت الرموس ،
كدخلوا بهرسير ضاحية المدائن في جوف الليل البهيم ، وشاء سعد أن
يعبر النهر إلى المدائن فوراً فأسرع إلى الشاطئ ، ولما كان وجد الأعاجم
قد ضموا السفن فيما بين البطائح وتكريت ، فوقف ومن معه على
الشاطئ . ينظرون ، فلاح لهم إيوان كسرى الأبيض في الظلام ، فوأوا
شيئاً عجيباً ، رأوا بنياناً ضيخاً ما رأوا مثله ، فتطلعوا إليه مدهوشين ،
وعقدت الدهشة ألسنتهم مدة ، ولما وجد ضرار بن الخطاب لسانه هتف :
— الله أكبر ! أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله .

فكبر المسلمون ، واستمروا في التكبير ، منشرحى الصدور ، فهاهو
أبيض كسرى أمامهم ، وما بينهم وبينه سوى ذلك النهر ، وسيجبرونه ،
وسينزلون بإيوان كسرى محققين نبوءة نبيهم العظيم .

الفصل الثالث والعشرون

كتيبة الاهوال

« ذلك تقدير العزيز العليم »
قرآن كريم

بقى سعد في بهرسير ، وكان كلما تطلع إلى الضفة الثانية ، ورأى
إيوان كسرى الأبيض ، ثارت حماسته ، وراح يفكر في اقتحام النهر
ليضع يده على المدائن حاضرة فارس ، ولكن كان يمنعه الإبقاء على
المسلمين ، وفي يوم أقبل رئيس من رؤساء فارس ، واستأذن في مقابلة
سعد فأذن له ، ولما تقابلا دار الحديث بينهما ، فراح الرجل يقول له :
« ما يقيذك ؟ لا يأتي عليك ثالث حتى يذهب يرد جرد بكل شيء في المدائن ،
وراح يذله على مخاضة في النهر يسهل اقتحامها ، ولكن سعد أبى ، فقد
خشى أن يكون ذلك مكيدة دبرت للقضاء على المسلمين ، وأقبل الليل
ونام الناس ، وجمع سعد ، فرأى فيما يرى النائم أن جيوش المسلمين
اقتحمت النهر ، وأن الخيول قد سبحت بمن عليها حتى عبرت إلى الضفة
الثانية سالمة ، فهب من نومه ملشراح الصدر ، وقد عقد العزم على أن
يخوض النهر بجيشه ، وعلى أن ينطلق باسم الله ، وعلى بركة الله .
وتنفس الصبح ، فخرج سعد إلى الناس وجمعهم ، وقام وقال بعد أن
حمد الله وأثنى عليه :

— إن دعوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه معه ،
وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فينا ، وشؤونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء .

تخافون أن تؤثروا منه ، ففند كفاحهم أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ،
وأغفروا ذادتهم ، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بذيابكم
قبل أن تحصركم الدنيا ، إلا أني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم .
فقالوا جميعاً :

— عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل .

وأخذ سعد ينتدب الناس إلى العبور فقال :

— من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا ينزعوهم

من الخروج ؟

فقال عاصم بن عمرو :

— أنا .

وتقدم من سعد وانتدب بعده ستمائة من أهل النجدات ، فاستعمل
سعد عليهم عاصم ، وبذلك تكونت كتيبة الأهوال ، وصار عاصم
وكتيبته حتى بلغوا شاطئ الدجلة ، وكان النهر قد أرغى وأزبد وفاض ،
فنظر عاصم إلى من معه وقال :

— من ينتدب معي لمنع الفراض من عدوكم ، ولتحميمكم حتى تعبروا ؟

فتقدم سنون ، فجعلهم نصفين على خيول إناث وذكرورة ليكون
أسلس لعموم الخيل ، واقتحم عاصم ومن معه النهر ، فلما رأى الأعاجم
الذين كانوا على الضفة الثانية ما فعل المسلمون ، أرسلوا خيلهم بالاقااة
هؤلاء المردة الذين لم يقف النهر في وجههم ، ولم يثنهم عن عزيمتهم ،
واقترحت خيول الفرس النهر ، فلما رأى عاصم ذلك ، صاح فيمن معه :
— الرماح ! الرماح ! أشرعوها وتوخوا العيون .

واندفع عاصم والسنون الذين معه صوب خيول الفرس التي نزلت
بالملاقاتهم ، ولما رأى بقية كتيبة الأهوال ما يصنع إخوانهم ، اقترحموا
النهر واندفعوا ليشتبكوا جميعاً في قتال الفرس ، وعامت خيول المسلمين

واقتربت من الضفة الثانية ، وهناك التقى المسلمون بالاعاجم ، ودارت معركة في البحر أشد هولا مما دارت على الأرض ، وأخذ المسلمون بصوبون الرماح إلى عيون الأعداء وإلى عيون الخيل ، فأخذت الخيل تنفر ، وتزلزلت بهم ، وراحت كتيبة الأهوال تنزل بالاعداء ضربات قاصمات ، فأحس الفرس ألا قبل لهم بهذا فقال بعضهم لبعض :

— ماتقاتلون الإنس ، وما تقاتلون إلا الجن .

ودبت روح الهزيمة فيهم ، فراحوا ينسحبون ، وخرجوا من الماء إلى البر وكتيبة الأهوال في أثرهم ، لا ترك لهم فرصة للراحة أو التجمع ، فاستمر القتال في البر إلى أن صاح صائح في أهل فارس :

— علام تقتلون أنفسكم ، فوالله ما في المدائن أحد .

فزاد ذلك في وهنهم ، وفيت في عضدهم ، فانهمزوا وتقهقروا صوب المدائن .

أصبحت كتيبة الأهوال على الضفة الثانية ، لا يذرعها منارح ، ورأى سعد أن عاصما قد زحزح الأعداء ، فقال للناس :

— اقترحوا وقولوا ، فسمعنا بالله ، وترك كل عليه ، حسينا الله ونعم

الوكيل ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فافتتح الناس دجلة ، وركبوا النجعة ، واقترنوا وصاروا يتحدثون كما يتحدثون على الأرض ، وراح سلمان المارسي يسير سعداً في الماء ، وامتلا النهر بخيل المسلمين ، حتى لم يعد من اليسير أن يرى الماء من الشاطئ ، والتفت سعد إلى سلمان وقال :

— والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه

إن لم يكن في الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات .

فقال له سلمان : الإسلام جديد ، ذلت لهم البحور كما ذل لهم البر ،

أما والذي نفس سلمان بيده ، أخرجن منه أفواجا كما دخلوه أفواجا

وأستمر جيش سعد في العبور ، والناس يتحادثون ، وزل رجل عن ظهر فرسه ، فمكاد يغرق ؛ ولكن النعمتاع لمح ، فثنى عنان فرسه إليه ، وأخذ بيد الرجل ، وراح يحره والتيار يحرفه ، واستمر النعمتاع في جره حتى بلغ الشاطئ .

فالتفت الرجل إليه وقال :

— عجرت النساء أن يلبن مثلك يا نعمتاع .

وخرج المسلمون من النهر أفواجا كما دخلوه أفواجا ، فراح الأفراس تنفض أعرافها وارتفع صهاطا ، وكبر المسلمون فزلزل المكان زلزالا ، وحمدوا الله على أن أخرجهم جميعاً من الماء سالحين ، والتفت سعد إلى عاصم وأمره أن ينطلق إلى المدائن ، فانطلق وكتيبة الأهوال خلفه إلى قلب الإمبراطورية الفارسية ليطاعنوه ، فتخبر الإمبراطورية كلها تحت أقدامهم .

الفصل الرابع والعشرون

سعد في إيوان كسرى

« كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام
كریم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ؛ كذلك أوردنا ما
قوما آخريين »
ترآن كريم

انطلقت كتيبة الأهوال في سكك المداخن ، فلم تعثر على أحد ، ولمح
رجل جماعة من الفرس يتلاومون ويقولون : من أى شىء فررنا ،
وجعلوا يحبس بعضهم بعضا ، ودبت الخساسة فيهم ، وهاجوا وماجوا ،
فقال الرجل عليه وضربه بسيفه ففلق هامته ، فلما رأى القوم ما حل
بإمامهم تفاروا عنه : وعاد الرجل يجد في أثر أصحابه ليلحق بهم .
راحته كتيبة الأهوال تطوى السكك القفار ، حتى بلغت القصر
الابيض ، فوجدت أناسا يدافعون عنه ، فضربت عليه الحصار ، وجاء
سعد ومن معه ، فحاصر المسلمون القصر من كل جانب ، وتطايرت
النعام ، وتصرم اليوم الأول ، وأقبل اليوم الثانى وسعد في مكانه يدبر
أمره ، وفيما هو يفكر ، أشرف رجل من القصر يطلب من يكلمه ،
فأرسل سعد سليمان ، فشى سليمان حتى صار قبالة الرجل الذى سأل عن
شروط المسلمين ، فقال سليمان :

— ثلاث تختارون منهن أيمن شئتم .

— وما هي ؟

— الإسلام ، فإن أسلمتم فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم

فأجزية ، وإن أيمن فمناجزكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم .
ودخل الرجل ليشاور أصحابه ، واستمر الحصار ، وفي اليوم الثالث .
أيقن من في القصر ألا قبل لهم على مواجهة هؤلاء المردة الذين قتلوا
أبطالهم ، وشتتوا جيوشهم ، وجعلوا ملكهم يحمل ما خف حمله من
جواهر ، ويترك عرشه ، وترك في الخزان من الثياب والمنازع والآنية .
والفضول والألطف والأدهان ما لا تقدر قيمته ، ويفر إلى حلوان .
مشرداً طريداً ، لا يدري مآله ، ولا يطمئن إلى غده ، فرأوا من الحكمة
مصالحة المسلمين ، فأشرف سفيرهم من القصر ، وتقدم إليه سامان .
ليسمع ردهم فقال السفير :

— لا حاجة لنا في الأولى ولا في الآخرة ولكن الوسطى .

قبل من في القصر دفع الجزية للمسلمين ، وفتحت أبوابه فتقدم سعد
والناس حوله ، ودخلوا قصر كسرى العظيم ، وجعلوا يدورون بعيونهم
في جنباته ، فامتأوا دهشة ، رأوا عظمة مارأوا مثلها قط ، رأوا أعمدة
ماساء ضخمة قائمة وتماثيل جص دقيقة الصنع ، ونماذج منقطة مزوقة .
وأبسطة فاخرة ، وترفا يأخذ باللب جعلهم يمشون مأخوذون فاغرى .
الآفواه دهشة وعجبا ، واستمروا في طرقات القصر حتى بلغوا إيوان كسرى .
فزاد عجبهم ، ورأى سعد ما بهر عينه ، وخاب له ، فخشع قبله وجعل يقرأ :
« كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع وبقام كريم . ونعمة كانوا فيها
فاكرين . كذلك أورتناها قوماً آخرين . »

وآن أوان الصلاة وهم في إيوان كسرى ، فأمر سعد المؤذن بالأذان ،

فارتفع صوت المؤذن لأول مرة بجلا في إيوان الوثنية :

الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر !

فأطرق الجميع وأحسوا طمأنينة تمتزج بهيبة ، وكان صوت المؤذن

يداعب أوتار قلوبهم ويسيطر على حواسهم ، فيرفعهم إلى عالم سماوي .

وجعلهم يخلقون في أجواء من المشوة الروحية ، حتى ليحسوا أنهم على اتصال وثيق بالله رب العالمين .

وأم سعد القوم ، ووقف خلفه المسلمون الصناديد ، الذين ماهابوا أحدا ولا خشوا موتا ، خاشعين يرتجفون خوفا من خشية الله . وراح سعد يقرأ القرآن فتهتز أفئدتهم فكأنما يسمعون لأول مرة ، وكانوا في صلاتهم ملائكة بررة ، كما كانوا في قتالهم شياطين مردة .

وقضيت الصلاة ، فأمر سعد الناس بجمع ما في القصر والإيوان والدور ، وكل بالاقباض عمرو بن عمرو بن مقرن ، وراح الناس يحرسون خلال القصر وباع بعضهم قبابا تركية مملوءة سلالا مختمة بالرصاص ، فحسبوها طعاما ، ففتحوا السلال فإذا هي آنية الذهب والفضة ، فحملوها إلى عمرو بن مقرن فوجد بعضهم كافورا فحسبوه ملاحا ، فراحوا يعجنون به ، واسكنهم وجدرأ مرارته في الخبز ، واستمرت الغنائم ترد على عمرو بن مقرن وهو يحصيها وتكديس أكراما .

وأمر سعد زهرة أن يجد في أثر القوم الفارين ، فخرج زهرة ومن معه وانطلقوا كالشهاب حتى وافوا جسر النهر وانفجروا الفارين عليه نخالطوهم وضاربوهم وزلزلوهم زلزالا شديدا ، وسقط بغل في النهر فأسرع الأعداء إليه وراحوا جميعا يحاولون إخراجه ، ورأى زهرة اهتمام القوم بالبغل فاتجه إليهم وراح يضربهم بالسيوف ، واسكنهم ظلوا ثائمين لم يفروا وتحملوا الضغط الشديد ، فقال زهرة :

— إني أقسم بالله إن لهذا البغل لشأنا ، ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضناك إلا لشيء بعد ما أرادوا تركه .

وحمل عليهم حملة صادقة ، وراح يحصمهم عددا ، ويقتلهم بددا ، فلم يبق منهم أحدا وأتجه أصحاب زهرة إلى البغل فأخرجوه ، ثم أمر برده إلى سعد .

ولمخ القمعقاع رجلاً يحاول الفرار ، والناس تحميه ، فانطلق إليه
وسيفه في يده ، فلما اقترب منه ، تبادل الرجلان الضربات وضرب
الفارسي القمعقاع ضربة شديدة اتقاها بسيفه ، ثم ضربه القمعقاع ضربة
فحاول الفارسي أن يتلقاها بسيفه ، ولكنها أطاحت بذراعه وما يحمل ،
ثم ضربه الثانية فكانت القاضية ، ووجد مع المقتول جندياً عليها عيبتان ،
وغلافان في أحدهما خمسة أسياف وفي الآخر ستة أسياف ، وإذا في
العيبتين أذراع ، فأخذ الغلافين والعيبتين وعاد إلى سعد .

وقف صاحب الأقباض يستقبل الرجال ويأخذ منهم ما غنموا ،
ووقف أناس ينظرون ويظهرون إعجابهم بما يشاهدون ، وأقبلت الدواب
في قطار طويل ، وراح كل يقدم دابته وهو لا يدري ما تحمل ، وتقدم
رجل بالبغل الذي بعث به زهرة ، وترك الرجل البغل وهم بالانصراف ،
فالتفت صاحب الأقباض إليه وقال :

— على رسالك حتى ننظر ما معك .

وراح الرجل يحيط عن البغل ما يحمل ، فإذا الذي عاينه حمية كسرى ؛
ثيابه وخرزاته ووشاحه ، ودرعه التي كان فيها الجوهر ، والتي كان يلبسها
ويجلس فيها المباهاة والتهيه ، ففغر الناس أفواههم دهشة ، وأقبل رجل
يسوق حمارين ، وحط عنهما حملهما فإذا تاج كسرى يتألا لا لآلاء ، فكبر
الناس وهللوا ، وبلغ تكبيرهم مسامع سعد فأقبل ليرى ما هناك ، وجاء
سعد إلى صاحب الأقباض ، فرأى الناس مجتمعين ينظرون بهوتين ،
فنظر إلى ما ينظرون فرأى عجباً ، رأى تاجاً يشع ضياء يكاد سناؤه يذهب
بالأبصار ، ثم أخرجت ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج
بالذهب ، المنظوم بالجواهر ، وأقبل القمعقاع بن عمر بالعيبتين والغلافين ،
وأخرج من العيبتين أذراعا ، فإذا الأذراع درع كسرى ودرع هرقل
ودرع النعمان ودروع أخرى لملوك الفرس ، وإذا في أحد الغلافين

تخمسة أسياف وفي الآخر ستة أسياف ، وكان بين الأسياف سيف
كسرى وسيف هرمز وسيف هرقل وسيف الزمان ، فالتفت سعد إلى
القنقاع وقال له :

— اختر أحد هذه الأسياف .

فاختار سيف هرقل ، وأعطاه سعد درعا من الدروع ثم قال :

— احبسوا سيف كسرى وتاجه وثيابه وسيف الزمان في الأخراس
لتبعث بها إلى عمر لتسمع بذلك العرب .

وجاء رجل يقود حمارين ، فتقدم صاحب الأقباض منهما ونظر فيما
على أحدهما ، فإذا سيفطان ، في أحدهما فرس من ذهب مسرج بسرج
من فضة على ثغره الياقوت ، والزمرد منظوم على الفضة ، وعليه فارس
من فضة مكلل بالجواهر ، وإذا في الآخر ناقة من فضة عليها سليل من
ذهب وبطان من ذهب ، ولها زمام من ذهب ، وكل ذلك منظوم بالياقوت ،
وإذا عليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر ، وأقبل وجل بحق معه ،
فدفعه إلى صاحب الأقباض ففتحه ، فرأى شيئاً يأخذ باللب ، لم ير مثله
قط ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض وقالوا :

— ما يعدله ما عندنا ولا يقاوبه .

والتفت صاحب الأقباض إلى الرجل وقال :

— هل أخذت منه شيئاً .

فقال الرجل في هدوء :

— أما والله لو لا الله ما أتيتكم به .

— من أنت ؟

— لا والله ، لا أخبركم بتحمدوني ، ولا غيركم ليقرظوني ، وإلكني

أتحمد الله ، وأرضى بشوابه .

وانصرف الرجل وقد اشترأت إليه الأعناق ، وراح سعد يحيل

عليه في الغنائم المكسدة التي جاء الناس بها وقال :

— والله إن الجيش لنوى أمانة ، ولو لا ما سبق لأهل بدر لقلت

وأبم الله على فضل أهل بدر ، لقد تبعنا من أقوام منهم هيات وهنات
فيما أحرزوا ، ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم .

ثم جمع الغنائم ، فراح سعد يقسم الفئ ، فاحتجز الخمس ، ثم قسم
الباقى على الناس ، فكان نصيب الفارس اثني عشر ألفاً ، وكلهم كان
فارساً ليس فيهم راجل ، وقسم الدور وأنزل العيالات ، وجيء بالقطف
وهو بساط واحد ، وهم بتقسيمه ، ولاكنه رأى أنه إذا قسم ففقد رونقه
وقلت قيمته ، ورأى أن لو أرسل به إلى عمر لرأى الناس شيئاً عجيباً ،
فالتفت إلى من عنده وقال :

— هل لكم في أن تطيب أنفسنا عن أربعة أخماسه ، فنتبع به إلى

عمر ، فيضعه حيث يرى ، فإننا لا نراه يتفق قسمته ، وهو بيننا قليل ،
وهو يقع من أهل المدينة موقعاً .

فقالوا جميعاً :

— نعم .

وجيء بالخمس وفيه ثياب كسرى وحليته وتاجه وسيفه وسيف
النعمان والقطف العظيم ، وحملت هذه الأشياء جميعاً على الرواحل ،
وانطلقت القافلة إلى المدينة تحمل أعجب ما ورد إليها ، وأنفس
ما شاهده العرب .

الفصل الخامس والعشرون

نفائس كسرى في المدينة

« إن قوماً أدرا هذا لأمناء »

عمر بن الخطاب

انطلقت القافلة التي كانت تحمل نفائس الفرس تخب في السير قاصدة المدينة ، وبينما كانت القافلة في طريقها كان حليس الأسدي على ظهر فرسه ينطلق كالصاعقة داخلاً المدينة ، ميمماً صوب المسجد قاصداً أمير المؤمنين ليبشره بفتح المدائن ، وما حدث في فتحها من أعاجيب .

وبلغ حليس المسجد فترجل عن فرسه ، ودخل فألقى عمر وعنده جمع من أصحابه ، فسلم عليه وراح يقص عليه كيف ركبوا اللجة عند عبور النهر ، وكيف اقتتل المسلمون والفرس في الماء ، وكيف فر الفرس مذعورين مدحورين ، وكيف دخلوا قصر كسرى الأبيض ، وما وجدوا فيه من تحف رائعات ، وزينات تخطف الأبصار وتأخذ بالآلحان ، واستمر حليس يصف ما وقع وما حدث في بيان رائع وحماسة أخاذة ، فراحوا جميعاً ينظرون إليه مأخوذين ، واستمر يصف لهم ما وجد المسلمون في إيوان كسرى ، فقصر خيالهم عن أن يتتبع ما يصف أو يتصور ما يقول ، وكيف يتصورون ما يروا ، وما لم يخطر لهم على قلب ، وذكر حليس لعمر عن سعد الشيباني الكثير ، وكيف أنه نبطى في جبايته ، يقسم بالسوية ، ويعدل ، وينقل إليهم حقهم نمل الذرة ، فأثلج صدر عمر .

مرت أيام ووفدت القافلة بنفائسها على المدينة ، فسرى نبأ وفودها

بين الناس ، فخرجوا إلى المسجد ليروا عجائب كسرى التي طالما سمعوا عنها ،
والتي طالما حدثهم المحدثون بعظمتها وندرتها ، وها هي عندهم ، وعمّا قليل
تصير ملك يمينهم ، فالحمد لله الذي نفلهم هذا .

ووضعت القافلة أحمالها النفيسة ، وراح عمر يفحص الغنائم ، وعلى
الرغم مما سمع بعظمتها ، فإنه وجدها أعظم مما قدر وتصور ، وبأن على
وجوه الناس الدهشة والعجب ، ونشر القطف العظيم ، فإذا هو بساط
واحد ، ستون ذراعاً في ستين ذراع ، فيه طرق كالصور ، وفصوص
كالأنهار ، وفي حافته كالأرض المزروعة ، والأرض المبقلة بالنبات
في الربيع من الحرير على قضبان الذهب ، ونواره بالذهب والفضة وأشباه
ذلك ، وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهب الرياحين ، فكانوا إذا أرادوا
الشرب شربوا عليه فسكانهم في رياض ، وما أن وقعت أعين الناس على
البساط حتى انبعثت منهم أصوات دهشة وعجب ، فالتفت عمر إلى من
حوله وقال :

— إن قوماً أدوا هذا لأمناء !

فقال علي بن أبي طالب :

— إنك عفتت فعفت رعيتك ، ولو رعت لرعت .

وأخذ عمر يفحص ثياب كسرى وتاجه وسيفه ودرعه ، ثم قال :

— على بمحلم .

فتقدم رجل ضخم ، وكانت أجسم عربي يومئذ بأرض المدينة ،
فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب ، وصب عليه أوشحته وقلائده
وثيابه وأجلس للناس ، فنظروا إليه فرأوا أمراً عظيماً من أمر الدنيا
وفتنها ، وتطلع عمر إلى الرجل طويلاً ثم رد الطرف وهو يقول :
— أحق بأمري من المسلمين غرته الدنيا ، هل يبلغن مغرور منها
دون هذا أو مثله .

واستمر الناس في فرحهم ولكن عمر أطرق ، وأحس رهبة وخشية من الله ، فرفع رأسه إلى السماء وقال :

— اللهم إنك صنعت هذا رسلك وفتيك ، وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني ، ومنعته أبا بكر ، وكان أحب إليك مني ، وأكرم عليك مني ، وأعطيتني ، فأعوذ أن تذكر أعطيتني لتذكر بي .

ولم يستطع عمر أن يكبت خشيته ، فأنخرط في البكاء ، فالتفت إليه عبد الرحمن بن عوف وقال :

— يرحمك الله يا أمير المؤمنين .

فقال له عمر .

— أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمسى .

وقام عمر والنصف ، وراح عبد الرحمن يبيع نفائس كسرى .

قسم عمر النى بين الناس ، وبقي البساط العظيم لا يدري ما يفعل به ، أيقسمه بين الناس ، أم يبقيه درة من الدرر ؟ وإذا أبقاه فحق حوزة من يبقى ؟ إن يبعه أمر عسير ، على الناس غير يسير ، فلا يتموى على شرائه أحد . وأخير أعزم على استشارة الناس ، فقام وحده الله وأثنى عليه ثم قال :

— أشيروا على في هذا القطاف .

فأشار بعضهم بقبضه ، وأشار بعضهم بتفويض الأمر له فقالوا :

— قد جعلنا ذلك لك فرأيتك .

ولكن علي بن أبي طالب تقدم وقال :

— لم تجعل عليك جهلا ، وبقيتك شكا ، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأبضيت ، أولبست فأبليت ، أو أكلت فأفنييت . إنك إن تقبله على هذا اليوم ، لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له .

فقال له عمر : صدقتني ونصحتني .

وأمر عمر بتقسيم القطاف فقسم ، وأخذ علي نصيبه وباعه بعشرين ألفاً .

الفصل السادس والعشرون

جلواء الوقيعة

استقر سعد في إيوان كسرى ، وبعث العيون خالف الفرس المنهزمين ، وتصرفت الأيام ، واستجمت الجيوش ، وفي يوم عاد عين من العيون ودخل على سعد في الإيوان ، وراح يقص عليه ما رأى من أهل فارس فقال له :

— انتهى الأعاجم بعد الحرب من المدائن إلى جلواء ، وتفرقت الطرق بهم ، وهم كل فريق منهم بالتوغل في طريق ، فتذامروا وقالوا : وإن افترقتم لم تجتمعوا أبداً ، وهذا مكان يفرق بيننا ، فهللوا فاجتمع للعرب به ، ولتقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الذي نريد ، وإن كانت الأخرى كننا قد قضينا الذي علينا ، وأبلىنا عذراً ، واجتمعت كلمتهم على النزول بجلواء ، وأقسموا لمهران ألا يفروا ، وأن يثبتوا لنا حتى الموت ، وأمرهم مهران أن يحفروا خندقاً ، فأتموا حنره ، وأحاطوا به الحسك من الخشب ليكون حائلاً بيننا وبين اقتحام الخندق عليهم ، وقد نزل يزدجرد بجلوان ، وراح يمدهم بالمال والرجال .

فأطرق سعد برهة ، واستأذن الرجل وخرج ، واستنمر سعد في تفكيره ، وجاء عين آخر وأخبره أن أهل الموصل قد عسكروا بتكريت فرأى سعد أن يكتب بذلك لعمر ، فكتب له ، وانتظر رده وهو على حذر ، يعد على الأعداء حركاتهم وسكناتهم ، وجاء كتاب عمر يأمره فيه بأن يسرح هاشم بن عتبة إلى جلواء في اثني عشر ألفاً ، فاستدعى

سعد هاشما وأمره أن يتأهب للخروج لقتال الفرس، وجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو .

تم استعداد جيش المسلمين ، فخرج من المدائن في عدة عظيمة ، على رأسه هاشم ، وفيه وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ، وانطلق إلى جلواء ، فلما رأى هاشم تحصن الأعاجم في الخندق أحاط بهم وحاصروهم وشن عليهم هجوماً شديداً ، ولكن لم ينل منهم شيئاً ، فإنيهم فهد تحصنوا بالخندق ، ورموا حول الخندق بحسك الخشب ، فما استطاعت الخيل أن تتقدم ، واستمر الأعاجم في خندقهم يرمون المسلمون بالنبل ، ومرت الأيام ووصل لأهل فارس مدد في حلوان ، فخرجوا يراحمون المسلمين في زهاء وأهاويل ، واقتتل الجيشان قتالاً رهيباً ، وساعد الخندق أهل فارس على أن يقاتلوا ثم يرتدوا إلى خندقهم المنيع ، وقام هاشم في الناس وقال :

— إن هذا المنزل منزل له مابعده .

واستمر القتال دائراً بلا هوادة أولين ، وأمد سعد هاشما بالفرسان ، ورأى الأعاجم أن حسك الخشب يعوقهم في حركتهم ، فجعلوا فرضاً مما يليهم تصعد منه خيلهم ، فأفسدوا حصصهم .

خرج أهل فارس من الخندق لتناجزة المسلمين ، فقام هاشم في الناس وقال :

— أبلوا الله بلاء حسناً يتم لكم عليه الأجر والمغنم .

ثم صاح في أصحابه :

— شدوا .

فانطلق فرسان المسلمين إلى فرسان الأعاجم ، واختلط الجميع ، وارتفع صليل السيوف ، وتبادل الضرب والطعن ، وأخذ القعقاع يفتك بالأعداء فتسكا ذريعاً ، ومدت السماء يدها لمعاونة المسلمين فهبت

ريح شديدة فلم يستطع الأعاجم إلا المحاجزة ، فتهافت فرسانهم في الخندق ، وانقض المسلمون عليهم ، ولكنهم راحوا يرمون حول الخندق بحسك الحديد ، فعاق ذلك تقدم خيل المسلمين

راح من في الخندق يسبون صفوفهم لاستئناف القتال ، فلما تم لهم ما أرادوا خرجوا ثانية في جموع هائلة وقد عزموا على أن يثبتوا المسلمين ، فقد انقضى ثمانون يوماً وهم في خندقهم محاصرون فما هزموا المسلمين ، وما هزمهم المسلمون ، فليكن هذا اليوم يوم الفصل . خرجوا ليقاتلوا أعداءهم الذين هزمهم في ديارهم وشقتوا شملهم ، وسبوا نساءهم ، وقد وطنوا عزمهم على الاستماتة في قتالهم عسى أن يزحورهم عنهم ، وأن يردوهم على أعقابهم .

ودارت رحي معركة رهيبة شديدة بين الطرفين ، معركة سالت الدماء فيها أنهاراً ، وقاتل أهل فارس قتالاً ما قاتلوا مثله من قبل ، ونفذ النبل ، ونفذ الشباب ، وقصفت الرماح ، فاستل الناس أسيافهم ، وسقطت أشعة الشمس على الأسياف فكانت تعكس ضياء يخطف الأبصار ، وصار الفرسان وجالوا ، واستمر المنون حاضناً ميدان المعركة ، ولما استوت الشمس في كبد السماء وحضرت الصلاة ، صلى المسلمون إيماء حتى إذا كان بين الصلاتين خنست كتيبة وجاءت أخرى فوقفت مكانها .

نظر القعقاع إلى المسلمين فرأى الإعياء قد بدا عليهم ، فخشى مغيبة ذلك فالتفت إليهم وقال :

— أهالكم هذه ؟

— نعم . نحن مكلون ، وهم مريحون ، والسكال يخاف العجز إلى أن يعقب .

— إنا حاملون عليهم ومجادوهم ، وغير كافين ولا مقلعين حتى يحكم

الله بيننا ، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ، ولا يكذب أحد منكم .

وانطلق القعقاع إلى الأعداء ، فانطلق الناس خلفه ، واستؤنفت المعركة فكانت أشد وأمر ، وأخذ النهار في التصرم ، فتصرمت معه أرواح خلق كثيرين . وأقبل الليل وألبسهم رواقه فأخذ الأعداء يئمة ويسرة ، ورأى القعقاع أن المسلمين قد تتحاجزوا مع الليل ، ولما كنته رأى بشاقب نظره أن لو صبر المسلمون قليلا لانتصروا على الأعداء نصراً مؤزراً ، فأرعى إلى أحد أصحابه أن يصيح :

أين تتحاجزون وأمركم في الخندق ؟

صاح الرجل ، وما صك صوته آذان القوم ، حتى ثارت الحماسة خيهم ، فكيف يتحاجزون وأميرهم بين الأعداء ، فاستأنفوا القتال ليبلغوا أميرهم ، وراح القعقاع يشق طريقه عند مدخل الخندق ، وبينما القتال رهيب يدور ، إذ جاجت أصوات في الفضاء :

— الله أكبر الله أكبر !

فشد ذلك من أزر المسلمين ، إنه مدد قد جاء ، وزلزل الأعداء زلزالاً شديداً ، وتقدم المدد وعلى رأسه عمرو بن معد يكرب ، وراح الناس يشقون طريقهم منسوب الخندق حتى بلغوه ، فألقوا القعقاع يقاتل فيه ، فانضموا إليه ، ودار القتال داخل الخندق ، ففر مهران والفيروزان ، وسقط الأعاجم مجذلين تحت ضربات السيوف ، وعقرت دوابهم ، فجالت القتلى المجال ، وانهمز أهل فارس هزيمة نكراء .

أخذ المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب ، فإذا هي عظيمة لا تقدر ، كثيرة فوق ما كانوا يتصورون ، وغاد الناس بالغنائم إلى هاشم فجمعها وقسمها ، فحجز الخمس لسعد ، وقسم الباقي بين الناس ، فكان نصيب الفارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب ، ورجع هاشم بالأناس إلى سعد

أرسل سعد إلى المدينة خمس الف ، والسبايا في قافلة طويلة ، وكان في القافلة زياد بن أبي سفيان .

فلما بلغت القافلة يثرب ، ورأى عمر جسامه الخمس بان الرضا في وجهه ، وفكر أين يضعه حتى يقسمه ، فالتفت إليه عبدالله بن الأرقم وقال : — اجعلها في بيت المال حتى نقسمها .

فقال عمر :

— والله لا يظلمها سيف بيت دون السماء .

فطرح بين صفتي المسجد صفة النساء وصفة الرجال ، وطرح عليهما الانطاع ، وبات عهد الله بن الأرقم وعبدالرحمن بن عوف يحرسان ما أرسله سعد .

وقابل زياد بن أبي سفيان عمر ، وراح يقص عليه ما فعل المسلمون من أعاجيب في قتال الفرس حتى هم موهم في جلولاء ، واستمر يصف له ما حدث بأسلوب أخاذ وحماسة غالبة ، حتى أسر عمر ، فالتفت إليه عمر وقال :

— هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به ؟

فقال زياد :

— والله ما على الأرض شخص أهيب في صدرى منك ، فكيف

لا أقوى على هذا من غيرك ؟

وأصبح الصباح ، وخرج عمر إلى المسجد ، واجتمع الناس وكشف عمر عن نفائس أهل فارس ، قرأى الذهب والفضة ، فظهر عليه التأثير ثم غامت عيناه بالدمع ، ثم انهمر الدمع حتى بل لحية ، فالتفت إليه عبد الرحمن بن عوف وقال :

— ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، فوالله إن هذا اليوم ليوم شكر ،

ويوم فرح وسرور .

فقال عمر :

— لا والله ، ما فنج الله على قوم هذا قط إلا جعل بأسهم بينهم ،
والقيت بينهم العداوة والبغضاء .

وقام زياد في الناس ، وراح يصنف لهم ما فعل إخوانهم من ضروب
البطولة والإقدام . وهذا المكان وسكن الجميع كأن على رؤوسهم الطير ،
وتدفق زياد ، فالتفت إليه عمر وقال :
— هذا الخطيب المصقع .

فقال زياد :

— إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا .

أرسل سعد إلى هاشم أن يبقى بحلوان ، وأن يسرح القعقاع في آثار
القوم حتى ينزل بحلوان ، فخرج القعقاع يحد في أثر مهران والفيروزان ، وأدرك
جيش المسلمين مؤخرة جيش الأعداء ، فدارت معركة بينهم وأخذ
مهران يحض الأجاجم على الاستماتة في القتال ، ولحقه القعقاع فاتجه إليه ،
وأخذ الحصان العنيدان يتبادلان ضربات ، فكانا كظبيين في خفتهم ،
وكأسدين في بأسهما ، وأخذ كل منهما يتلقى ضربات غريمه ، ودارا حول
نفسيهما ، وشد القعقاع على خصمه وضربه ضربة هائلة فتلقاها ، ولكن
القعقاع عاجله بضربة ثانية ، فخر مهران مجذلا .

ورأى الفيروزان ما حل بمهران فولى الأدبار ، وانطلق إلى حلوان
حتى دخل على يزدجرد ، فراح يقص عليه ما فعل المسلمون بهم ، والوجل
يتملكه ، واليأس مستول عليه ، فانتقل الذعر منه إلى يزدجرد ،
فجمع ما يستطيع جمعه ، وخرج من حلوان فإلى نحو الري ، قبل أن يكون
مال مهران ماله ، وترك بها خيلا عليها خسرو ، ولو أنصف لما ترك
بها أحدا فلن يعترض سبل المسلمين شيء ، وإن يقف في سبيله أحد .

سار القعقاع بعد مقتل مهران قاصداً حلوان ، فلما أصبح على بعد
فرسخ منها ، خرج له خسرو ، ودارت معركة بين الجيشين ، وكانت
الدائرة على الفرس فدخل القعقاع وجيشه حلوان وغنموا شيئاً كثيراً .
كتب سعد إلى عمر بنزول القعقاع بحلوان ، وطلب منه الإذن في
اتباعهم ، ولكن عمر أبى وأرسل إليه :

— لوددت أن بين السواد وبين الجبل سد ، لا يخلصون إلينا ، ولا
نخلص إليهم ، حسبننا من الريف السواد ، إني آثرت سلامة المسلمين
على الأنفال .

الفصل السابع والعشرون

إلى السكوفة

« إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق أهلها من
المدائن » .
عمر بن الخطاب

نزل الناس بالمدائن ، وكان بها ذباب كثير ، وغبار يشور ، فتغير
لون الناس ، ونظر حذيفة إلى إخوانه فرأى أجسامهم التي كانت كالرماح
المشرعات قد ترهلت ، وعوامل الاعتلال قد بانت عليهم ، فألقى من
الخير أن يكتب إلى عمر ، لعل عمر بما عرف عنه من الاهتمام بأمر الناس
يجد لذلك الاعتلال علاجاً ، فكتب إليه : « إن العرب قد أتت
بطونها ، وخفت أعضادها ، وتغيرت ألوانها ، وبلغت رسالة حذيفة
عمر ، وحدث أن جاءت وفود العرب إلى المدينة تحمل أنباء نزول
القعقاع حلوان وفتح تكريت والموصل ، فأخذ عمر يتفرس في هؤلاء
الذين جاءوا عن المدائن ، وقال :

— والله ما هيئتكم بالهبة التي بدأت بها ، ولقد قدمت وفود القادسية
والمدائن ، وإنهم لكما بدأوا ، وقد انكميتم ، فما غيركم ؟
— وخومة البلاد .

أقلقته هذه الحالة عمر ، فأرسل إلى سعد يسأله : « أنبئني ما الذي
غير ألوان العرب ولحومهم ؟ » فكان جواب سعد : وخومة البلاد ، إذن
لا بد من ترك المدائن والبحث عن مكان آخر يصلح لسكنى هؤلاء الذين
اعتادوا جناف الصحارى ، فكتب إلى سعد : « إن العرب لا يوافقها

إلا ما وافق لإبلها من البلدان، فأبعث سلمان رائدا وحذيفة، فأيرتادا منزلا
بريا بحريا، ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر .

بعث سعد سلمان وحذيفة يرتادان البلدان، ويبحثان عن مكان يوافق
الناس، فخرج سلمان وسار في غرب الفرات، وانطلق حذيفة في شرق الفرات،
وأخذوا يفحصان وينقبان ويستقصيان، وبلغ سلمان مكان الكوفة، فأعجبه
مناخه، والتقى الرائدان، وانفقا على أن هذا المكان هو أصلح مكان
في البلدان يوافق العرب، فصليا به، ولما انتهيا من صلاتهما رفعا أيديهما
إلى السماء، وراحا يدعوان :

— اللهم رب السماء وما أظلت، ورب الأرض وما أقلت، والرياح
وما ذرت، والنجوم وما هوت، والبحار وما جرت، والشياطين وما
أضلت، والخصاص وما أجت، بارك لنا في هذه الكوفة، واجعله
منزل ثبات .

قدم سلمان وحذيفة على سعد، وأخبراه عن الكوفة، فسكتب سعد
إلى القعقاع أن يوافيه ومن معه في المدائن بعد أن يخلف على حوان
أحدًا؛ فلما توافى الجند بالمدائن، ارتحل سعد بالناس وانطلقوا حتى
وافوا الكوفة، فعسكر بها .

نزل الناس بالكوفة فاستردوا هيئتهم، وثاب إليهم ما كانوا فعمدوا؛
ورأوا من الخير لهم أن يشيدوا بيوتًا من القصب ينزلونها بدل الخيام،
فاستشاروا سعدًا، واسكن سعدًا ما كان ليه قطع بأمر دون أن يرجع إلى
أمير المؤمنين، فأرسل إليه يستأذنه . فأرسل إليه عمر : « العسكر أجد
لحربكم، وأذكي لكم، وما أحب أن أخالفكم؛ وما القصب؟ » فأرسل
سعد إليه : « العكرش إذا روى قصب فصار قصباً، فأذن لهم سعد،
فابتدوا لهم من القصب بيوتًا، وشبهت حريق فالتهمت البيوت، فعادوا
إلى خيامهم، واسكنهم وجدوا من العسير عليهم أن يستبدلوا البيوت

التي أنفوا الراحة فيها بالخيام ، فاستأذنوا سعداً في أن يبيتوا بيوتاً من اللبن ، فأرسل إلى عمر وفداً يسألونه أن يأذن لهم ، فنقص الوفد عليه ما فعل أخريق بيوتهم ، وأخذوا يحدّثونه عن منازل اللبن فقال لهم : — افعلوا ، ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تزمكم الدولة .

ثم عهد عمر إليهم ألا يرفعوا بنياناً فوق القدر ، فسألوه : — وما القدر ؟

— ما لا يقربكم من السرف ، ولا يخرجكم من القدر .
وأخذ عمر يذكر لهم ما يتبعونه في تخطيط الطرق والأزقة ، وعاد الوفد إلى سعد ، وأخبروه خبرهم ، فاستدعى سعد رجاله ، وابتدأ تخطيط الكوفة فبنى أول ما بنى المسجد ، ولما تم المسجد ، وقف رجل شديد النزع في وسطه ، فرمى عن يمينه ، ومن بين يديه ومن خلفه ، وقال سعد : — من شاء أن يبنى فلين وراء هذه السهام .

وخططت الطرق ، فكانت المناهج أربعين ذراعاً ، وما يليها ثلاثين ذراعاً ، وما بين ذلك عشرين ، وبالأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شيء . وبنيت السوق وبنيت دار لسعد عرفت بالقصر ، وجعل فيها بيت المال ، وأنشئ من نقص آخر قصر كان للأكاسرة في ضواحي الحيرة ، وبنيت المنازل ، ودبت في الكوفة الحياة ، وكان قصر سعد بلا باب ، وكان بجوار الأسواق ، فكانت غوغاء الناس تمنع سعداً الحديث ، فابتنى للقصر باباً ، وانفس بعضهم على سعد ، فانطلقوا إلى المدينة حتى جاءوا عمر وقالوا له :

— ابتنى سعد داراً يقال لها القصر ، واحتجب فيها ، ولم يكتف به بذلك بل جعل لها باباً وقال : « سكن » عن الصوت ، وراحوا يوغزون صدر عمر عليه ، فأرسل عمر إلى محمد بن مسلمة ، وأمره أن

ينطلق إلى الكوفة وقال له :

— اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه ، ثم ارجع عودك على بدئك .
انطلق محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأخذ في السير حتى بلغها ، فاتجه
إلى السوق ، ورأى قصر سعد ، فاشترى حطباً ، ثم أتى به القصر ،
فأحرق الباب .

علم سعد أن باب قصره قد أحرق ، فقال :
— هذا رسول الله لما من الشأن .

أيقن سعد أن من حرق بابه رسول عمر ، فراح يبحث عنه في الكوفة
ويستقصى أخباره ، وبحث أصحابه ليعرف من هو ، وعاد أحد رسله
إليه وقال :

— إنه محمد بن مسلمة وهو في الخارج .

— قل له أن يدخل .

وغاب الرسول مدة ثم نادى إلى سعد وقال :
— إنه يأتى .

فنهض سعد وانطلق حتى أتى محمداً عند الباب ، فأراد أن يدخل
وينزل عنده فأمعن في الرفض ، ثم مد يده بكتاب عمر ، ففضة سعد
وأخذ يقرأ :

و بلغني أنك بنيت قصراً ، اتخذته حصناً ، ويسمى قصر سعد ، وجعلت
بينك وبين الناس باباً ، فليس بقصرك ، ولسكنه قصر الخبال ، انزل منه
منزلاً بما يلي بيوت الأموال وأغلقة ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع
الناس من دخوله ، وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك
من دارك إذا خرجت .

فسكت سعد برهة ثم أخذ يحاف أنه ما قال الذي قالوا ، وهم محمد
ابن مسلمة بالرجوع ، فعرض عليه سعد أن يتزود ولسكنه أبى ، وقفل

عائداً ، و قيل أن يبلغ المدينة ، فقد زاده ، فبلغ بالحاء من الحاء الشجر ،
وبلغ عمر وقد بان عليه الجهد من الجوع ، فسأله عمر عما به ، فقص عليه
قصته ، فقال عمر :

— فهلا قبلت من سعد ! !

— لو أردت ذلك كتبت لي به ، أو أذنت لي فيه .

لم يشأ محمد أن يأخذ من سعد ما يتزود به ، لأن أمير المؤمنين لم يكتب
له بالزاد ، فقال له عمر :

— إن أكل الرجال رأياً من إذا لم يكن عند عهد من صاحبه
عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل . وما قال سعد ؟

— أقسم أنه لم يقل ما بلغ أمير المؤمنين .

فبان في وجه عمر التصديق وقال :

— هو أصدق مما روى عليه وأبلغني .

الفصل الثامن والعشرون

الهرمزاني

«الحمد لله الذي أذل بالاسلام هذا وأشباهه»

عمر بن الخطاب

ضاق صدر يزيد جرد بالهزيمة وشاء أن يطلق آخر سهم في جعبته ، فكتب إلى أهل فارس ، يذكرهم الاحقاد ، ويحرك همهم ، ويقول لهم مؤنباً أن قد رضيتم أن قد غلبتكم العرب على السواد وما والاه والاهواز ، ثم لم يرضوا بذلك حتى يوردوكم في بلادكم وعقر داركم . فراح أهل فارس وأهل الأهواز يتعاقدون ويتواثقون على النصرة ، فتجمعوا ، وبلغ عمر خبر تجمعهم ، فأرسل إلى سعد أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كشفاً مع النعمان بن مقرن معه سويد بن مقرن وجرير بن عبد الله البجلي . خرج النعمان في أهل الكوفة ، فأخذ وسط السواد ، حتى قطع دجلة ، ثم أخذ البر على البغال إلى الأهواز ، ولما جاء سوق الأهواز ، انطلق لملاقاة الهرمزان ، وشاء الهرمزان أن يعاجل المسلمين لعله ينتصر عليهم ، فيرد إلى فارس اعتبارها ، فبادر النعمان الشدة ، واقتتل الجيشان قتالاً شديداً ودارت الدائرة على الهرمزان ، فلحق بتستر ، وانطلق النعمان في أثره .

بلغ النعمان تستر ، وحاصرها ودار بين رجال الهرمزان ورجال النعمان قتال رهيب ، وأخيراً سقطت المدينة ، واعتصم الهرمزان بقلعة من القلاع ، وشاهده بعض رجال المسلمين فأسرعوا إليه ، حتى بلغوا

مكاناً ضيقاً من القلعة وأصبحوا أمام الهرمزان وجهالوجه فصاح فيهم :
— ماشدتم ! قد ترون ضيق ما أنا فيه وأنتم ، ومعنى في جميعى مائة
نشابة ، ووالله ما تصاون إلى مادام معى منها نشابنة ، وما يقع لى منهم ،
وما خير لى سارى اذا أصببت منكم مائة بين قتيل وجريح ؟
— فتريد ماذا ؟

— أن أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر ، يصنع لى ماشاء .
— فلك ذلك .

فرمى الهرمزان قوسه ، ووقف منتصباً لا يتأولم ، فتقدموا منه
وشدوه وثاقاً .

أرسل الهرمزان إلى المدينة ، وانطلق الوفد به فلما بان لهم أرباض
يثرب ، أغدوا فى السير ، ولما دخلوها همشوا الهرمزان فى هيئته ،
فألبسوه كسوة من اللبىاج الذى فيه الذهب ، ووضعوا على رأسه تاجاً
مكتلاً بالياقوت وعليه حلقة كى يراه عمر والمسلمون . وانطلق الوفد إلى
بيت عمر فقبل لهم إنه خرج ، فساروا فى طرقات المدينة والناس حولهم ،
ومروا بخلبان يلبسون ، فسألهم الخلمان : من تريدون ؟ أمير المؤمنين ؟
— أجل .

— إنه نائم فى ميمنة المسجد .

فانطلق الناس إلى المسجد ، فألقوا رجلاً نائماً متوسداً برأسه ، ولا
أحد فى المسجد غيره ، فانطلقوا وجلسوا دونه ، فراح الهرمزان يدير
عينيه فى المسجد ، فلا يجسد إلا رجلاً نائماً وفى يده درة معلقة ،
فسأل الوفد :

— أين عمر ؟

— هو ذا .

وأشاروا إلى الرجل النائم ، فظهر العجب على وجه الهرمزان ،

وارتفعت أصوات الناس، ولكن الوفد أشاروا إلى الناس أن اسكتوا.

وقال الهرمزان :

— أين حرسه وحجابه ؟

— ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ، ولا ديوان ،

— فينبغي أن يكون نبيا .

— بل يعمل عمل الأنبياء .

وحدثت جليلة ، وأخذ الناس يرجون بعضهم في بعض ، فاستيقظ

عمر وفتح عينيه ، فوقع بصره على رجل أعجم في ملابس فاخرة ، وعلى

رأسه تاج يتلألأ ، فاستوى جالسا ، وسأل من حوله :

— الهرمزان ؟

— نعم .

فأخذ عمر يتأمل ويتأمل ما عليه ثم قال :

— أعود بالله من النار ، وأستعين الله ، الحمد لله الذي أذل بالإسلام

هذا وأشياعه .

ثم التفت إلى الناس وقال :

— يا معشر المسلمين ، تمسكوا بهذا الدين ، واهتدوا بهدى نبيكم ،

ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة .

فقال له الوفد :

— هذا ملك الأهواز فكلمه .

— لا . حتى لا يبقى عليه من حلته شيء .

فجردوه من ثيابه إلا ما يستره ، ثم ألبسوه ثوبا صفيقا ، وقال

له عمر :

— هيه يا هرمزان ، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟

— يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية ، كان الله قد خلى بيننا وبينكم ،
فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا .

— إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ما عندك
وما حجتك في انتفاضك مرة بعد مرة ؟

— أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك .
— لا تخف ذلك .

— أريد أن أشرب .

فأتى بماء في قدح غليظ ، فقال الهرمزان :

— لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا .

فأتى بماء في إناء يرضاه ، فتناولوه وجعلت يده ترتجف ، ثم التفت
إلى عمر وقال :

— أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء .
فقال عمر :

— لا بأس عليك حتى تشربه .

فأتى الهرمزان بالماء ولم يشربه ، فقال عمر :

— أعيدوا عليه ، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش .

— لا حاجة لي في الماء ، إنما أردت أن أستأمن به .

— إني قاتلك .

— قد أمنتني .

— كذبت .

فقال أنس وكان واقفاً مع الناس يسمع :

— صدق يا أمير المؤمنين قد أمنتته .

— ويك يا أنس .

— ١٧٩ —

— قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني، وقلت لا بأس عليك حتى تشربه..
وشهد الناس بمثل ذلك، فأطرق عمر قليلا ثم رفع رأسه والتفت إلى
الهرمزان وقال :

— خدعتني ، والله لا أنخدع إلا لمسلم .
فأسلم الهرمزان ، وفرض له عمر ألفين ، وأنزله المدينة .

الفصل التاسع والعشرون

فتح الفتوح

« قل هل تترصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن
نترصدكم أن يصيبكم الله بمصاب من عنده أو
بأمرنا فتربصوا إنا معكم وتربصون »
فإن كرم

شدت سعد الأعاجم ، واستقر في الكوفة ، وعلا شأنه ، وأرسل
تالعيون وراء النجوم الفارين خشية أن يتجمعوا ويفجأوه ، فأكلت الغيرة
بعض القلوب ، فراح الجراح بن سنان الأسدي يجمع بعض نفر من بني
أسد لينطلقوا إلى عمر في المدينة ، وليألبوه على سعد ، وتمكن الجراح
من جمع بعض نفر ، وراحوا يتحينون الفرصة للخروج من الكوفة إلى
المدينة لإنفاذ ما يبتووه بليل .

وعلم سعد أن يزدجرد كاتب أهل الجبال من بين الباب والسند
وخرسان وحلوان ، فتحركوا وتكاثروا ، وركب بعضهم إلى بعض ،
فأجمعوا أن يوافقوا إلى نهاوند ، ويبرموا فيها أمورهم ، وبلغه أنهم قالوا :
إن محمداً الذي جاء العرب بالدين لم يعرض غرضنا ، ثم ملكهم أبو بكر
من بعده ، فلم يعرض غرض فارس إلا في غارة تعرض لهم فيها ، وإلا
فيما يلي بلادهم من السواد ، ثم ملك عمر من بعده ، فطال ملكه وعرض
حتى تناولكم وانتقصكم السواد والأهواز وأوطاعا . ثم لم يرض حتى أتى
أهل فارس والمملكة في عقر دارهم ، وهو آتيكم إن لم تأتوه ، فقد

أحرب بيت ملككم ، وليس بمته حتى تخرجوا من في بلادكم من جنوده ،
ثم تشغلوه في بلاده . فأرسل سعد إلى أمير المؤمنين رسولاً بالخبر ،
وكتب له : « إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسحاب إلى أن
يبادروهم الشدة » .

خرج رسول سعد ، وخرج أولئك النفر الذين اتفقوا على الشخوص
إلى أمير المؤمنين للإيقاع بيته وبين سعد ، وأخذ سعد يستعد لاستئناف
قتال أهل فارس في عقر دارهم ، إنه يعلم أنهم إن جاءوهم قبل أن يبادروهم
الشدة ، أؤدادوا جرأة على المسلمين وقوة .

وكان سعد بن أبي وقاص قد استعمل النعمان بن مقرن على كسكر
يجبى الخراج ، ولكن النعمان رجل جهاد وقاتل ، فلم يرض بهذا العمل ،
ولم يطب به نفساً ، إنه يتوق إلى النزالي ، لئلا يملكه ومال جمع المال ،
فكتب إلى عمر : إني قد تفتت إلى الجهاد ، ومثلي ومثل كسكر كمثل
رجل شاب إلى جنبه . ومستهنون له وتعطر ، فأشدك الله لنا عزائتي
عن كسكر ، وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين .

وصل رسول سعد إلى عمر ، وبلغه كتاب النعمان ، فكتب عمر
إلى سعد : « إن النعمان كتب إلى يذكرك أنك استعملته على جباية الخراج .
وأنه قد كره ذلك ، ورغب في الجهاد ، فابعث به إلى أهم وجوهك إلى
نهادنا ؟ » وبينما كان سعد يجهز الجيوش التي ستخرج من الكوفة لقتال
الاعداء ، كان أولئك النفر الذين خرجوا من الكوفة للإيقاع بسعد عند
عمر يحادثونه ويخوضون في سعد ، فقال أحدهم :

— إنه لا يقسم بالسوية .

وقال الثاني :

— إنه لا يعدل في الرعية ، ولا يغزو في السرية .

وقال الثالث :

— إنه لا يحسن الصلاة .

فأطرق عمر برهة ، ثم رفع رأسه وقال :

— إن الدليل على ما عندكم من الشر . فهو عنكم في هذا الأمر . وقد استعد لكم من استعداد وأيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم . وإن نزلوا بكم .

ونادى عمر محمد بن مسلمة ، وأمره أن ينطلق إلى الكوفة للنظر في هذه الشكوى .

بلغ محمد بن مسلمة الكوفة ، وكانت تموج بالناس موجاً ، وتعج بحجيجاً ، وكانت الجيوش تنأهب للخروج ، وانطلق محمد إلى قصر سعد ، فدخل وأعلمه ما جاء به ، ثم أخذه وراح يطرق به على مساجد الكوفة يسأل الناس عنه علناً ، فليست المسألة في السر من شأنهم ، وبلغا مسجداً ، فسأل محمد الناس :

— ما رأيكم في سعد ؟

— لا نعلم إلا خيراً ، ولا نشتهي به بدلاً ، ولا نقول فيه ، ولا نعيب عليه .

فانطلقا إلى مسجد آخر ، وسأل محمد الناس :

— أفشد بالله رجلاً يعلم حقاً إلا قال .

فقال رجل :

— إنه ليعدل في القضية ، ويقسم بالسوية .

واسنبر الطوائف على مساجد الكوفة حتى اتفيا إلى بيتي أمم ، فقبيلة

الجرارح بن سنان ، وسألهم محمد عن سعد ، فقال أحدهم :

— إن الصيد إلهيه .

وقال آخر :

— إنه لا يقسم بالسوية ، ولا يحسن الصلاة ، ولا ينفر في السرية .

فظاهر الغضب في وجه سعد وقال :

— إني لأول رجل أهرق دماً من المشركين ، ولقد جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه ، وما جمعهما لأحد قبلي ، ولقد وأيتني خمس الإسلام ، وبني أسد تزعم أنني لا أحسن أصلي ، وأن الصيد يلهيني ١٩ .

وأمر محمد سعداً أن يتأهب للانطلاق والقوم إلى عمر ليرى رأيه ، فترك عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن عتبة خلقاً له على الكوفة ، وخرج تاركاً خلفه الكوفة وجيوش المسلمين المتأهبين للخروج ، وبلغ القوم عمر فقص محمد بن مسلمة عليه ما رأى وما سمع ، فالتفت عمر إلى سعد وقال :

— يا سعد وبجك كيف تصلي ؟

— أطيل الأوليين ، وأحذف الآخرين .

— هكذا الظن بك يا أبا إسحاق .

وخرج سعد بريئاً لما ألقى به ، واصل عمر شاء أن يبقيه في المدينة فسأله :

— من خليفتك يا سعد على الكوفة ؟

— عبد الله بن عبد الله بن عتبة .

والتفت عمر إلى من حوله وقال :

— من يعذرني من أهل الكوفة ، إن وليت عليهم التقي ضعفوه ، وإن وليت عليهم القوي فجروه .
فقال له المخيرة :

— يا أمير المؤمنين ، إن التقي الضعيف له تقواه وعليك ضعفه ، وإن القوي الفاجر لك قوته وعليه فجوره .
فنظر عمر إلى المخيرة وقال :

— صدقت ، فأنت القوي الفاجر ، فأخرج إليهم .

وأخذ سعد يقص على عمر أنباء تجمع الفرس ، وعمر مطرق يفكر ،
وانتهى سعد من حديثه فاستأذن وانصرف ، وبقى عمر يفكر في أمر
الفرس وتجمعهم ، وفيما هو في تفكيره ، أقبل رسول من الكوفة يحمل
رسالة بأنه قد تجمع من الفرس خمسون ومائة ألف مقاتل ، وأنه ينبغي
مبادرتهم الشدة ، فلما انتهى عمر من قراءة الكتاب التفت إلى الرسول
وسأله :

— ما اسمك ؟

— قريب .

— ابن من ؟

— ابن ظفر .

فأشرق وجه عمر وقال :

— ظفر قريب إن شاء الله .

وأمر المنادي أن ينادي : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس وكان أول
من دخل المسجد سعد بن أبي وقاص ، فلما وقعت عين عمر على سعد
تدأل وقام على المنبر وخطب الناس وذكر لهم خبر تجمع الفرس
واستشارهم ، وقال :

— هذا يوم له ما بعده من الأيام ، ألا وإني قد هممت بأمر وإني
عارضه عليكم فاسمعوه ، ثم أخبروني وأوجزوا ولا تنازعوا فتعشاوا
وتذهب ربحكم ، ولا تكثرُوا ولا تطيلوا فتفشغ بكم الأمور ، ويلتوي
عليكم الرأي ، أفمن رأى أن أمير فيمن قبي ، ومن قدرت عليه حتى
أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصيرين ، فاستنفرهم ثم أكون لهم ردماً ،
حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب ، فإن فزع الله عليهم أن أضربهم
عليهم في بلادهم ولتأزعوا ناسكهم .

فقام طلحة بن عبيد الله خطيباً ، فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أما بعد
يا أمير المؤمنين ، فقد أحكمتك الأمور ، وعجمنتك البلايا ، واحتشكتك
التجارب وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ، لا نفبو في يدك ، ولا نكل
عليك ، إليك هذا الأمر ، فمرنا نطع ، وادعنا نجب ، واحملنا نركب ،
ووفدنا نغد ، وقدنا ننقد ، فإنك ولي هذا الأمر ، وقد بلوت وجربت
واختبرت ، فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيار
وانتهى طلحة من خطبته فجلس ، وساد المكان سكون وهدوء ،
فقال عمر :

— إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا .

فقام عثمان بن عفان فتشهد وقال :

— أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من
شأمهم ، وتكتب إلى أهل اليمن ، فيسيروا من بينهم ، ثم تسير أنت
بأهل هذين الحرمين إلى المصرين الكوفة والبصرة ، فتلقى جمع المشركين
بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرت بهم معك وعندك ، قل في نفسك ما قد
تكاثر من عدد القوم ، وكنت أعز عزا وأكثر يا أمير المؤمنين ، إنك
لا تستبقى من نفسك بعد العرب باقية ، ولا تمتنع من الدنيا بعزير ، ولا
تلوذ منها بحرين ، إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام ، فاشهده برأيك
وأعوانك ، ولا تغب عنه .

وجلس عثمان وعاد السكون إلى المكان ، فعاد عمر وقال :

-- إن هذا يوم له ما بعده من الأيام ، فتكلموا .

فقام علي بن أبي طالب وقال :

— أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإنك إن أشخصت أهل الشام من
شأمهم ، سارت الروم إلى ذراريهم ، وإنك إن أشخصت أهل اليمن من
يمنهم ، سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإنك إن أشخصت من هذه الأرض ،

اتتقنت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع
وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات ، أقرر هؤلاء
في أمصارهم ، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق ،
فالتقم فرقة لهم في حرمهم وذرائعهم ، والتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا
يتنقضوا عليهم ، ولتسر فرقة إلى اخوانهم بالسكوفة مددا لهم ، إن
الاعاجم إن ينظروا إليك غدا قالوا : هذا أمير العرب وأصل العرب ،
فكان ذلك أشد لطلبهم وألبتهم على نفسك ، وأما ما ذكرت من مسير
القوم ، فإن الله هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ،
وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ،
ولكننا كتبنا نقاتل بالانصر .

وجلس على ، وقام سعد فتطلع الناس إلى قاهر الفرس ، ومزلزل
ملكهم ، وأصاخوا السمع ليسمعوا كلام أعلم الناس بحرب فارس ،
فقال سعد :

— يا أمير المؤمنين خفض عليك ، فإنهم إنما جمعوا لنقمة ، إن هذا
الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه لكثرة ولا قلة ، هو دينه الذي أظهر ،
وجنده الذي أعز ، وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود
من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده .

جلس سعد وقد سرى في نفوس الناس اليقين ، وانصرفوا وكلمات
سعد ترن في آذانهم . نحن على موعود من الله ، والله منجز وعده
وناصر جنده .

أرسل عمر إلى النعمان أن يخرج إلى نهاوند وأمره أن يسير بأمر الله
وبعون الله ، وينصر الله بمن معه من المسلمين ، وكتب إليه : إن رجلا
من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار ، وكتب إلى الأمصار أن يسيروا

الجنود لموافاة النعمان بنهاوند ، وبقي سعد في المدينة يتنسم أخبار المعركة ،
ومرت الأيام ، وراح سعد يخرج إلى ظاهر المدينة فيتنطس الأخبار ،
وفي ليلة من الليالي مر به راكب يريد المدينة ، فسأله سعد :

— يا عبد الله من أين أقبلت ؟

— من نهاوند .

— ما الخبر ؟

— خير ، فتح الله على النعمان ، واستشهد ، واقتسم المسلمون فيء

نهاوند ، فأصاب الفارس ستة آلاف .

فأطرق سعد ، وحزن على النعمان ، وغامت عيناه بالدمع ، وراح

يقاوم حزنه ، ولكن انهرمت الدموع من عينيه ، فبكى حتى بل لحيته .

الفصل الثلاثون

مفترق الطرق

« ما حدثها لأرغب فيها لأحد من أهل بني »

عمر بن الخطاب

ابتدأ مولد النهار ، واعتلى المؤذن المسجد ، وأرتفع صوته بالأذان يدعو الناس إلى صلاة الصبح ، فخرج الناس من دورهم ، وانطلقوا إلى المسجد ليصاوا خلف عمر ، انطلقوا بنفوس هادئة ، وما دار بخلداهم أن هذا اليوم يختلف عن سائر الأيام ، وما دروا أنهم بعد قليل سينقلب هدوؤهم صخباً ، وطمأنينتهم قلقاً ، ولو اخترقت أبصارهم حجب الغيب القريب لعلموا أن هذا اليوم يوم فاصل بين عهدين ، يوم له ما بعده .

وخرج عمر من داره ، وانطلق إلى المسجد لا يلوي على شيء ، انطلق ليحمل عبء المسلمين في جميع الأصوار ، وما علم أنه عما قليل يوضع عن كاهله ذلك العبء الجسيم ، ودخل المسجد وأم القوم ، وقبل أن يكبر التفت خلفه فرأى المسلمين قد سبوا الصفوف ، وسدوا الفرجات ، فطابت نفسه ، وكبروهم بقراءة القرآن ، ولكن رجلاً دخل في الناس ، وراح يشق الصفوف حتى بلغ عمر ، فراح يقطعنه بخنجر معه ، وشاهد الرجل الواقف خلف عمر ، ما يفعل القتلى ، فانقض عليه ، ولكن القتلى عاجله بضربة سقط بعدها الرجل مجذلاً ، وسقط عمر ، فحدث هرج ، وماج الناس بعضهم في بعض ، وانقضوا على القتلى وأخذوا بتلابيبه ، وراحت دماء عمر تتدفق ، فالتفت الناس حوله ، ولكن عمر سأل :

— أفى الناس عبد الرحمن بن عوف ؟

— نعم يا أمير المؤمنين ، هو ذا .

وتقدم عبد الرحمن من عمر الذى قال له

— تقدم فصل بالناس .

وتقدم عبد الرحمن وجعل يصلى بالناس ، وعمر طريق ينزف دمه ،
وخفف عبد الرحمن فى الصلاة ، ولما قضيت أسرع الناس إليه ، وسماوه
إلى داره .

انطلق أصحاب عمر به إلى الدار ، وراح الناس يتحدثون عن أبى
لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة قاتل عمر ، فهذا يذكر أصله ، وذاك يحدث
عن سبب حقه تلى عمر ، وثالث يقول إن عمر خرج يوماً يطوف
فى السوق ، فلقى به أبو لؤلؤة فقال : « يا أمير المؤمنين أعدنى على المغيرة
فإن على خراجاً كثيراً » قال عمر : « وكم خراجك ؟ » قال : « درهمان
فى كل يوم » قال عمر : « وما صناعتك ؟ » قال : « نجار نقاش جداد »
قال عمر : « فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال » قد بلغنى
أنك تقول لو أردت أن أعمل رضى نطحن بالرجل لفعلت ، قال : « نعم »
قال عمر : « فأعمل لى رضى » قال : « لئن سلمت لأعملن لك رضى يتحدث
بها من بالشرق والمغرب » وهذا هو العبد ينقد وعيده ، لقد طعنه طعنات
سيحدث بها من فى المشرق والمغرب .

وضع عمر فى فراشه ، وألهم ينزف حنة ، فالتفت إليه من عنده

وقالوا له :

— يا أمير المؤمنين لو دعوت الطبيب .

— أفعلوا .

فارسوا فى طلب طبيب من بنى الحارث فجاء قسقاء نبذا ، وخرج

النبذ مشكلاً فقال :

— اسقوه لبناً :

فسقوه لبناً ، فخرج اللبن أبيض ، وبان الضعف على عمر ، فقال له
بعض من عنده :

— يا أمير المؤمنين لو استخلفت ؟

— من استخلف ، لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً استخلفته ، فإن
سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة .
فقال رجل :

— أدلك عليه ، عبد الله بن عمر .

فظهر الضيق في وجه عمر وقال :

— قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، ويحك كيف استخلف
رجلاً عجز عن طلاق امرأته ، لا أرب لنا في أموركم ، ماحدثها فأرغب
فيها لأحد من أهل بيتي ، إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً
فشر عنا إلى عمر ، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ،
ويسأل عن أمر أمة محمد ، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي ، وإن
نجوت كفافاً ، لا وزر ولا أجر ، إني لسعيد ، وأنظر فإن استخلفت
فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ،
وإن يضيع الله دينه :

وخرج الناس من عند عمر ولم يعهد ولم يول أمر المسلمين أحداً ،
واشتد الوجع عليه ، ولم يكن يفكر في نفسه ، بل كان يفكر في المسلمين
الذين سيتركهم خلفه ، فرأى أن يدعو أصحاب النبي الذين توفي وهو عنهم
راض ، فقال لعبد الرحمن بن عوف ، وكان عنده :

— ادع لي علياً وعثمان والزبير وسعداً .

فأرسل عبد الرحمن في طلبهم فلما اكتمل عندهم ، قال لهم عمر
— إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا

الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض ، إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكنني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها ، فتشاوروا ، واختاروا رجلاً منكم .

وهووا بالانصراف ، ولكن عمر قال لهم :

— لا تدخلوا حجرة عائشة ، ولكن كونوا قريباً .

ودخلوا حجرة قريبة ، وراحوا يتفاجون ، وراح الدم ينزف من عمر ، وارتفعت المناجاة إلى نقاش ، ثم انقلب النقاش الهادي إلى نقاش حاد ، فتضايق ابن عمر فصاح :

— سبحان الله : إن أمير المؤمنين لم يمت بعد .

وبلغ صوت عبد الله بن عمر أذن أبيه ، فأشار عمر لهم أن اقبلوا فلما جاءوا قال لهم :

— ألا أعرضوا عن هذا أجمعين ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطليحة شريككم في الأمر ، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضره أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم ، ومن لي بطلحة ؟

فقال سعد :

— أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله .

— أرجو ألا يخالف إن شاء الله ، وما أضئ أن يلى إلا أحد مدين الرجاين : علي أو عثمان ، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولي علي ففيه دعاية ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق ، وإن تولوا سعداً فأهلها هو ، وإلا فليستعن به الوالي فإنني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ، ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد ، له من الله حافظ ،

فأجمعوا منه . ودعا عمر صهيباً وأمره أن يصلي بالناس ثلاثاً بعد موته حتى يتفقوا على خليفه من بينهم ، وأرسل إلى عائشة يستأذنها في أن يدفن بجوار صاحبيه الحبيبين محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر خليفة الرسول ، فأذنت له فاطمأنت نفسه ، واشتد به الوجع ، ودب فيه الوهن ، فراح يتمتم مستغفراً ربه ، ثم شخص بصره ، وفاضت روحه صاعدة إلى السماء راضية مرضية .

وبلغ الناس النبأ الفاجع ، فغشى وجوههم الإظلام ، وانطلق سعد وعلى وعثمان وعبد الرحمن والزيير إلى داره ليجهزوه ، وخيم الحزن على المدينة ، وأخذت الناس تندبه وتبكيه ، وبكت باكية عليه فقالت : — وأحرى على عمر حراً انتشر حتى شاع في البشر .

ثم جهز عمر ، فحمله الناس إلى المسجد ، وسار سعد وعلى وعثمان والزيير والناس خلفه ، وقد بان الحزن في وجوههم ، ووضع في المسجد ، وتقدم على ليصلي عليه ، وتقدم عثمان ليصلي عليه ، فالتفت إليهما عبد الرحمن ابن عوف وقال :

— لا إله إلا الله ، ما أحرصكم على الإمرة ، أما علمنا أن أمير المؤمنين قال . ليصل بالناس صهيب ،

فتنحى على وعثمان ، وتقدم صهيب ، وصلى عليه ، ولما انتهى من صلاته تقدم الحنسة ، على وعثمان وسعد والزيير وعبد الرحمن وحملوه ، ونزلوا به القبر .

قبر عمر ، وخرج الحنسة من قبره ، وراح على ينفض رأسه ولحيته ثم قال :

— يرحم الله بن الخطاب ، لقد ذهب بخيرها ونجا من شرها وانطلق على وهو لا يشك أن الأمر يصير إليه ، وانطلق سعد يفكر في أمر هذه الشورى .